كريتر كعادتها «مفرد بصيغة الجمع»:

رامبـــو.. بقايا جمرة في عـــدن

• أوصى بأن يوارى جثمانه في عدن لكن والدته - كعادتها - حطمت رغبته!

• تعلم العربية.. ومثلما كان صاحب أهم نظرية شعرية كان أول المستقيلين من الشعر بملء إرادته!

• الفرنسيون حاولوا شراء الأثاث المكتبي دون جدوى ولم يبق من رامبو سوى منحوتة خشبية تزيّن مدخل الفندق

محمد عبده العبسي

أتكون مفارقة أن تكون المسافة بين ميمنة الصفحة وميسرتها موازية لرحلة زمنية بين القرنين الأول والثالث عشر للهجرة تقريباً؟ قد لاتكون كذلك. لكن أموراً عدة تجعل من هذه النطقة دوامة سهلة الهضم والتصديق. فما إن يعرف المرء أن منارة عدن التاريخية التي تعود إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان في أرجح تقدير لها والشامخة في ميمنة الصفحة هذه تكبر -من حيث السن والبناء- عن المبنى الكظيم في ميسرة الصفحة وهو وكالة النقل البحري أو المركز الثقافي الفرنسي قديماً وفندق سياحي حديثاً بما لايزيد عن ثلاثة عشر قرناً .. أقول ما إن يعرف المرء هذه المعلومة الحقيرة نوعاً ما حتى يفاجأ بأن المسافة بين هذين المعْلَمَين وبُعد أحدهما عن الآخر لايزيد عن ثلاثة عشر متراً. ثلاثة عشر قرناً في مقابل ثلاثة عشر متراً .. دقة غريبة ومفارقة مريبة تغذيها ملاحظات أخرى قد لاتبدو هامة إلا أن لها قيمة موضوعية خصبة.

فمن المفارقة أن تكون هذه المنارة محط نزاع بين المؤرخين والرحالة وغيرهم إذ لايوجد إجماع حول ماهيته قديماً (منارة مسجد - أو منارة إرشاد سفن) فضلاً عن الاختلاف الشاسع بين المؤرخين، فيما يتعلق بتاريخ بنائها، وفي الطرف الآخر سنجد أن الشخص الذي سكن هذا المبنى وهو الشاعر الفرنسي الشهير الراحل آرثر رامبو صاحب الشخصية القلقة والمتناقضة والمتمردة قد حقق النعرة ذاتها يكاد من أكثر الشعراء العالميين إخلالاً بالمفاهيم والأنظمة ناهيك عن التباين الكبير في الرؤى والتناولات لدى دارسيه ومعاصريه أبداً شخصية وسلوكاً. وإزاء ذلك فإن من يزور هذين المعلمين سيلاحظهما قد تشاطرا نفس الحال من حيث الوحدة والشرود والانفصال عن الذهنية الخاصة بكل منهما.

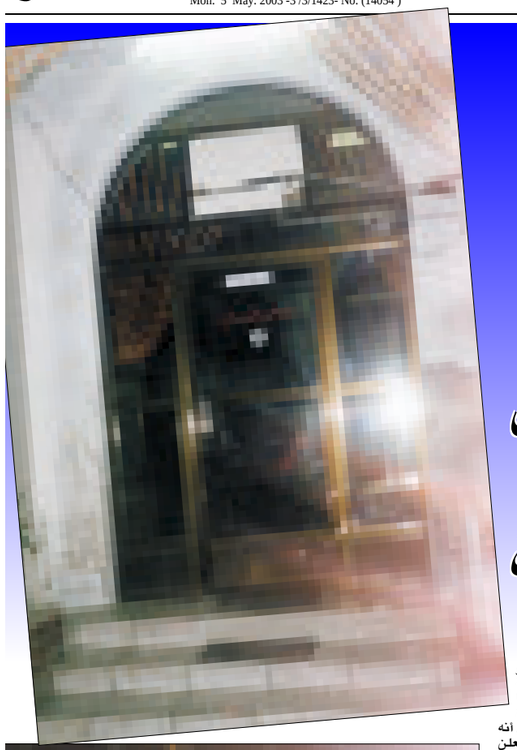

■ المبنى الذي سكن فيه رامبو

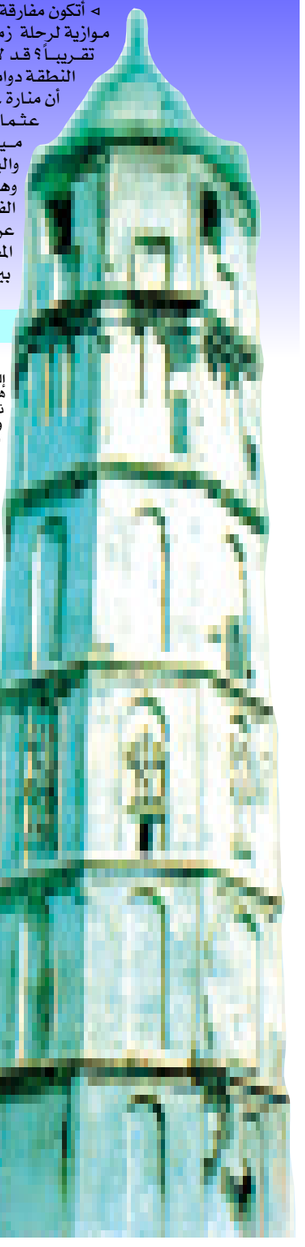

– وإذن سبيان جوهريان سيدفعاني إلى تعطيل لعبة المقارنة تلك، الأول أن هذه الأسطر مخصصة للتسكع في ذاكرة ذلك المبنى القديم الحديث وشاعره على وجه التحديد. أما الآخر فلاتنني أقف بين يدي «عدن».

هل لرسالته من عدن قيمة أدبية؟

● عدن هذه المدينة التي كلما ابتعدت عنها كلما أزدادت حاجتك إليها لجد نفسك في فورة نزقة إلى كيمياء البحر مغشياً باحدى شواطئها لذا لن تلام حين تسرح لبلك في محاولات إذابة شحوم الذاكرة وانتزاع ماتيسر منها على شواطئ للتأمل، وكريتر تحديداً (عدن القديمة) مأإن تدلفها حتى ياسرك شعور بأنك إزاء ياقوتة فريدة في سحرها وجمالها وغرائبيتها وقدرتها على أن تكون «الكل فرداً» بتعبير البردوني أو «مفرداً بصيغة الجمع» بتعبير أدونيس.

ولا أظنني الوحيد الذي هرع إلى كريتر فور وصله إلى عدن للتعرف على معالمها وتحديداً المنزل الذي سكن فيه الشاعر الفرنسي آرثر رامبو، ربما لأن في المكان الوجه الآخر للذات والصيغة الأكثر تعبيراً وتفسيراً للقادم منها.

والغريب والطريف في أن أن جميع الأدباء والمثقفين العرب وربما الفرنسيين أيضاً يولون أهمية كبرى للجانب الذي أمضاه رامبو من حياته في عدن حتى لايكاد يذكر رامبو دون ذكر عدن على الرغم من أنه وصل إليها ميتاً شعرياً وأدبياً، أو كما يقال: وصل إليها «بحذاء من ريح» سنة ١٨٨١م. كما أن الكثيرين - وربما كنت من بينهم- يجزمون جزم اليقين بأن الرسائل التي كان يبعث بها رامبو الشاعر الطفل والملاك المتوحش» بحسب معاصريه إلى أسرته أو أصدقائه بفرنسا لاقيمة أدبية لها نهائياً وأنها أشبه ماتكون برسائل من شخص عادي فقير الإمكانيات اللغوية والإبداعية -مالم يكن مفلساً- لا من شاعر فصل من الجحيم» وشاعر «الاشراقات» بإقراره الفظيعة، و«شموسه المرة» و«فجرياته المؤلمة» الذي فجّر ينابيع جديدة في الشعر لم ينحصر تدفقها على اللغة الفرنسية فحسب!

– فلماذا هذا التقاطع» قد تدفع إلى ذلك استثنائية عدن في الذاكرة الإنسانية فضلاً عن شرايين الانتماء المتقدة إلى عدن. ألا توجد دوافع أخرى أكثر نضجاً ورشداً من ذلك؟! أم تراهم يحاولون البحث عن ذلك الشرق الساحر وعن جنة عدن التي ارتسمت تخومه في مخيلة رامبو قبل مجيئه إليها؟ ثم إن رامبو هذه الشخصية المريبة والمتناقضة والمعقدة التي ظنت في بادئ الأمر أنها خارج قوانين البشر واعرافهم وظل صاحبها يعيش طفولته الأسطورية كشاعر مترف لايعمل، وهو ماجعله عالة على الآخرين لمنتصف شبابه تقريباً، يكتب الشعر وينظر له ويجد طفولته فيه. لكن سرعان مارضخ للواقع وتحول فجأة إلى تاجر أرعن يعمل ليل نهار دون راحة ليكون «الأديب الوحيد الذي انقطع عن الكتابة والشعر بملء إرادته» طبعاً خلف تلك الإرادة كانت أسباب عنيفة وقوية أهمها موت الطفولة فيه لانحرافه عن ظهارتها وبراءتها والتورط في مستنقع الواقع.

ماأريد التنويه إليه هنا أن البعض بخطئ حين يظن أن رامبو مات كشاعر في عدن فقبلها مر بافريقيا، ناهيك عن أنه ترك الشعر قبل التوجه إلى الشرق بسنوات عدة. – وسياتي تفصيل ذلك لاحقاً- بل إن عدن كانت بالنسبة له الأمل الوحيد الذي قد يغير مجرى حياته لكن بلا جدوى.

عدن- رامبو × الأدب العربي

● في هذا الاتجاه يسير الشاعر العربي الكبير أدونيس وأعني بذلك قيمة الرسائل التي بعث بها رامبو من عدن ولغائها من أجندة الاهتمام. حيث يقول في إحدى المقاطع من ديوانه المهد:

«وكان رامبو قد حاول - استخرج
جبراً آخر من كيمائها
لكن حانته كيمياء العصر!
كما أنه «اتوهج مع رامبو بين جمرة عدن وتباريح المذب»
و«عدن قدماها موج جذعها براكين».

فهل وجد أدونيس في محاولة رامبو تلك الفاشلة قيمة لـ«استخراج حبر آخر من كيمائها» مع أن رسائله تلك لاقيمة لها أدبية بحسب الافتراض السابق. ربما ذلك لأن هزيمته هي انتصار لإنسانية الشاعر وقداسة الطفولة التي دفعته إلى قرار كارثي يعجز غيره عن اتخاذه .. قرار ترك الكتابة التي كانت في وهج الطفولة الهواء الذي يستنشقه.

مهرجان رامبو هل يعود؟

● وقبل الدخول إلى المبنى الذي نقف بين بديه الأفضل أن نسلط الضوء أكثر على الارتباط الوثيق بين رامبو وعدن لدى المثقفين العرب والفرنسيين والذي دفعهم إلى المناداة للالتقاء كل عام في عدن مهرجان باسم الراحل «صاحب القلب الطاهر والشرير» كما يوصف وهو مأحدث في منتصف التسعينات عندما ترجمت تلك الرغبة إلى حقيقة حيث التقت نخبة ذهبية من الأدباء في جامعة عدن وكانت نواة لمهرجان سنوي عالمي للشعر لكن هذه الفكرة الرائدة توقفت لأسباب كثيرة برغم أن هذا المهرجان يمثل تظاهرة أدبية كبرى تحتضنها مدينة استثنائية هي عدن.

ففي هذا السياق يكتب الدكتور/ عبدالعزيز المقالح من حلقتين في عموده الشهري «هوامش يمانية» في مجلة الكويت عنوانه «آرثر رامبو .. من باريس إلى عدن» ويستهله باستشهاد بمقولة لرامبو حول كتابته للقصيدة ثم يستدرك: «استطاع ذلك الشاعر الطفل والملاك المتوحش أن يضع تاسيساً جديداً لطريقة الكتابة الشعرية،وأن يكتب في ظل هذا التصور «الأحلام الوهمية البسيطة» الذي يبدو اعتباطياً شعراً غير مسبوق وكان وسيبقى مثيراً ومدهشاً لقرائه من كل مكان وفي كل زمان (.....) وبعمليه الشعريين «فصل من الجحيم» و«الاشراقات» وحدهما قد مثّل نقطة تحول جوهري ليس في الشعر الفرنسي وحسب، وإنما في الشعر العالمي كله. كونه انطلق من تصور جمالي فائق يقوم على خيال جامح يتجاوز كل الامكانات الحسية والعقلية ويركض في وديان من النور».

وقال: «حين علمت أن رامبو امضى جانباً من حياته في مدينة عدن احسست أن صلة ما تنشأ بيننا وظننت انه سبق لي وان رافقت روحه في أحياء المدينة الجميلة».

وقد كتب قصيدة حول ذلك في أواخر الستينات يقول في المقطع الأول منها:

«قليلاً من الشمس بعضاً من الشعر
ياأيها الليل إنا سئمنا ضبابك، صمتك
تشتاق أرواحنا للميادين مغمورة ببهاء الصباح
وضوء الظهيرة .. ياأيها الظل
ياشوقنا المتجمد في واحة الليل
أين عصافيرك الحالمات؟
وأين ينابيعك الظامئات؟ فهيا .. إلى الشرق
حيث استراح الصفاء على قمة الأرض.
حيث السماء، كما البحر زرقاء، والبحر مثل السماء،
ومثل العيون العميقة أزرق
يحمل في كفه غيمة ونجوماً.

– بالإضافة إلى الكثير من الشعراء والأدباء العرب بمن فيهم الشاعر أمجد ناصر الذي تناول في كتاب له سيرة رامبو في عدن وروحانيتها، والشاعر اللبناني فؤاد الخشن، من أوائل رواد قصيدة التفعيلة حيث يقول: «كتبت عن رامبو قصيدة طويلة من ٤٥ صفحة

احتضنت عدن مهرجاناً شعرياً عالمياً في جامعتها فهل يعود؟!

■ د. المقالح

■ أدونيس

عنوانها «مع رامبو في عدن» يقول مقطع منها:

أنت كنت المُجر الحقيقي للغة وألوان الحروف
كل حرف فجرت فيه لوناً خاصا
وأنت كنت تبتكر السهر لغة مغسلة
لغة من نار
تفتح أفواه الأحجار
زهراً وثماراً.

بقايا الشاعر المستقيل في المبنى

● وأنت أمام المبنى -المنزل- الذي سكن فيه آرثر رامبو يصعب عليك تحديد بوصلة أفكارك وضبط هرمونية أحاسيسك حينها. لاشيء هناك فقط لوحة كبيرة تختلتها قبل الوصول إلى بجانبها لوحة «مطعم رامبو السياحي» وتلفهما حزم من اسلاك «الزينة» الضوئية.

المالك الأصلي للمنزل هو المرحوم/ محمد إبراهيم وقد تم ترميم المبنى وتجديده قبل أربعة أعوام تقريباً على نفقة الأخ/ حيدر أحمد حيدرة وهو صاحب الفندق بعد أن استاجر المبنى التاريخي من ورثة المرحوم/ محمد إبراهيم - مالك المنزل الغريب أن الأخ/ حيدر أحمد الذي زج باربعة مواعيد لم يفِ منها بواحد لأسباب لايعرفها إلا هو وحتماً هي غير ماذكره لي المستلم في الفندق بانه مشغول ولديهم اربع صبليات و.. و... ولا يباشر العمل فيها إلا هو وأخواه.

في المبنى كان ثمة مجموعة من المقاعد والأغراض المكتبية -وربما مجموعة من الوثائق بحد قوله- ترجع للمدة التي كان فيها مركزاً ثقافياً فرنسياً وفي فترة تواجد رامبو فيه وقد حاولت لجنة من الفرنسيين استردادها وشراءها من ورثة المرحوم/ محمد إبراهيم لكن الظاهر أن خلافاً ما نشب بين الطرفين حال دون ذلك وقد اعقب الورثة ذلك بان أخلوا المبنى منها بنقلها إلى مكان آخر قبل عامين تقريباً.

الشيء الوحيد الذي جعلني اعض يد الندم هو أنني في آخر زيارة للمبنى التاريخي على هامش موعد «فشينج» ايضاً مع مالك الفندق في التاسعة مساء وهو آخر يوم لي في عدن فوجئت أن المنحوتة الخشبية التي تزين مدخل الفندق الداخلي وهي بالفرنسية وفيها رسم للشاعر من عمل الشاعر المستقيل رامبو.

وقد تم اتفاق بين ورثة المالك الأصلي للمبنى وبين صاحب الفندق على أن تدخل تلك المنحوتة الخشبية ضمن العقد المبرم بين الطرفين. ومصدر الندم هو أنني لم أستطع التقاط صورة فوتغرافية لتلك المنحوتة.

الأحلام الوهمية البسيطة

● «العبقرية .. هي الطفولة المستعادة قصداً» هذه المقولة لبودلير هي حزمة الضوء التي يمكن من خلالها الدخول في شخصية رامبو ابن الأردين، تلك المنطقة المغمورة بالمطر والضباب معظم ايام السنة كون أسطورة الطفولة كانت مفتاحه إلى العبقرية والفردية الرائعة التي حققها وبحسب تعبير جاك بريفيد فان رامبو خلق ليستمر طفلاً لذا لايستغرب أن يستقيل هذا الشاعر المهزوم بملذات الواقع وانكساراته والجمودية التي اتسم بها القرن التاسع عشر في أوروبا وسياساتها الاستعمارية وبحسب مؤلف كتاب رامبو سمير الحاج شاهين فإن «عبودية الجد الذهني كانت تسبب عذاباً حقيقياً لرامبو، حيث صاحب تلك الجمودية انذار القيم الروحية واصبح العقل هو القوة والسلطان.

شاعر قلق ومضطرب كرامبو ادمن حياة التشرد لفترات طويلة إلى الحد الذي يجعله يجزم بانه نام في شوارع كل مدن أوروبا لايستغرب دارسوه من انه شاع في الثالثة والثلاثين من عمره حين غزته الأمراض والأوجاع ناهيك عن العملية الجراحية التي اجريت له في عام ١٨٩١م في مستشفى مرسيليا الذي لفظ روحه فيه والتي بترت فيها ساقه اليمنى بسبب «إصراره على السير على اقدامه في مجاهل افريقيا لمسافات طويلة بالإضافة إلى العمل بوحشية وضرا وة دون أن يرحم جسده».

ولعل حياة التشرد والتنقل هذه تبدو وبجلاء في إحدى رسائله من عدن والتي عبر فيها بانه لو كان بمقدوره السفر دون أن يكون مضطراً للاستقرار في مكان محدد للعمل فإنه ماكان ليمكث في نقطة واحدة أكثر من شهرين لأن العالم كبير وملىء ببلاد عديدة.

ويجسد ذلك أدبياً قول إيف بونفوا: «لقد ظهر رامبو في كل نتاجه مهوساً بفكرة الممثل المضطرب في داخله .. ذاك الذي يمثل دون أن يتمكن من أن يعيش بالفعل مهزلة الحقيقة. نعم إنه متصوف في حالة التوحش بعد كلودبل.

ولنتابع التحول المصيري في حياة رامبو فبعد انتهائه من «فصل من الجحيم» وهو عبارة عن سيرة ذاتية لشموسه المرة وفجرياته المؤلمة وصل إلى ذروة الشعرية والى نظريته الشهيرة حول الكتابة الشعرية والموسومة بـ«رسالة الرائي» والتي كان اول من فاتحه بها هو صديقه ارنست دلاهاي والمتعلقة بتصورات التفجير للطاقة الحسية للنصوص والاعتماد على «الأحلام الوهمية البسيطة» والشاعر من وجهة نظره «سوف يحدد كمية المجهول المستيقظة في عصره في الروح الكونية» وارسلها إلى بول دميني وارخت في ١٥ أيار سنة ١٨٧١م.

شاعر بلا قلب

● «إن مصدر تفوقي هو أنني بلا قلب» هكذا قال رامبو ترى هل يكون السبب ذاته هو مصدر التحول الذي حدث في حياته؟

أول بادرة لموت الشاعر داخل رامبو كانت في عام ١٨٧٥م حيث بعث برسالة إلى صديقه أرسنت دلاهاي ضمنها قصيدة «حلم» .. والتي تعود القصيدة التي ودع بها الشعر حيث يصف فيها عن أنه تخلى عنه إلى الأبد وعن أوهامه ليعلن رضوخه لمعطيات الواقع المادي ويبدأ حياة العمل والتجارة.

كما أنه كتب في نهاية سيرته فصل من الجحيم في مسودة مخطوطتها: «إنني أكره الآن الشطحات الصوفية وغرابات الأسلوب والآن أستطع القول إن الفن هو سخافة.

كما أن ارنست دلاهاي في زيارة له عن الأدب فقال له: لم اعد اهتم بهذا» آية شخصية قلقة هذه. رامبو الذي كان في طفولته متزوجاً بالكتب ومتلصصاً عليها حيث كان يقف عند مخروطات الكتب في المكتبات العامة كل يوم وصل به الحال إلى أن يستخف بعقل كل من يشتري كتاباً.

بعد وصوله إلى هذه الحالة ظن أن في السفر كبسولة مضادة لماسبه حيث قال لدلاهاي: «إن طقس اوروبا الآن بارد جداً لايناسب مزاجي الذي تغير لم أعد أستطيع أن أعيش إلا في بلاد الحارة».

جنة عدن

ابن المناطق الباردة يحن إلى بلاد الشرق .. حيث الدفء والشمس والهواء الطلق، كنت احب الصحراء .. البساتين المحروقة .. وأخشى حدة الشمس المبلدة للحس واتوق إلى وهج أشعتها المحرقة.

يقول سمير الحاج مؤلف كتاب رامبو الذي صدر ضمن سلسلة اعلام الفكر العالمي: «إن حنين رامبو إلى الشرق هو شوقه إلى بلاد طفولته التي اختفت عن خريطة الأرض والتي يحاول في غمرة هذا الضباب والعتمة التي تلف الكون أن تعيدها من جديد» إنه يحلم «بجنة عدن» وعلى الرغم من أنه لم يجد ما رسمته مخيلته الجامحة إلا أنه يفضل البقاء في عدن برغم مايلاقيه من معاناة لأن التعاسة موجودة ولأنه يشعر على الأقل في هذه المدينة أنه مجهول وأن الناس قد نسوه كلية».

وفي العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٩١م توفي رامبو موصياً بدفنه في عدن لكن والدته رفضت كعادتها وأصرت أن يدفن في مقبرة شارلفيل وبعد اربعة أيام وصل جثمانه إلى مرسيليا ودفن دون تحضير المراسم المنشودة ودعوة أصدقائه وزملائه بسبب عناد والدته.

ويذكر مؤلف كتاب رامبو أنه كان يردد بشكل متواصل اثناء رقوده في مستشفى مرسيليا «الله كريم .. الله كريم» وقال: «الم يتعلم العربية وهذه من النقاط المشتركة بينه وبين والده الضليع بهذه اللغة المشغوف بثقافتها الذي شغل في فترة من حياته العسكرية منصب رئيس المكتب العربي الا يشاع أنه كان يدرس آيات من القرآن الكريم إلى بعض أطفال عدن الفقراء.